آيل للسقوط

بقلم.. هالة الجمسي / مصر

(چورج استيقظ لتلحق بالقطار أمامك سفر طويل)

صوت أمي صباحا أقوى من صوت المنبه بكثير متكرر تعلو نبرته بكل إصرار وعزم ولا تتركني إلا وأنا مستيقظ.

دعنيني أنام قليلا

رجوتها ولذة النوم بأجفاني أريد العود للنوم من جديد ولكن صوتها عاد بإصرار وقد زادت حدة الصوت فصارت صراخ

(چورچ يجب أن تنهض القطار سيفوتك لديك موعد هناك)

- موعد أي موعد؟

تململت بالفراش وقد هرب جمال الكرى من الأجفان حاولت أن أتذكر المواعيد

أي مواعيد؟؟؟ فقط "ماتش" الكرة مساء مع الجيران

ثم تذكرت المساء وبضع كلمات أمي أمس قبل الخلود للنوم عن العائلة المقيمة بالصعيد ثم غمغمت.

تقصدين حديثك عن عمي وعمتي نحن لم نتفق مع أى أحد على موعد أمي

خبأت رأسي بالوسادة وأنا أهمس لها برجاء:

انزعي الفكرة من رأسك لن تجدى نفعا.

ولكن صوت أمي قريب مني هذه المرة لأنتبه أنها تقف فوق رأسي مباشرة وصوتها كمديرة مدرسة حازمة صارمة تمسك ذراعي لتدفعني للنهوض وقد ظهر جديا أن لا وقت لمراجعة قرارتها

- هيا اغتسل بالماء البارد فالإفطار جاهز و...

صمت أمي وهي تتطلع للسقف وقد ضاقت عيناها وكأنها تتوعد السقف بشيء ما ثم نقلت بصرها الفراش الذي يتأرجح بي يمينا ويسارا قفزي من الفراش كان بسبب تلك الهزة التي حدثت بالبيت

باسم الصليب

تمتمت أمي وهي تتجه بيديها بالاتجاهات الأربع على صدرها ثم أكملت بحزم:

- الوضع لا يحتاج تأخير يجب أن تذهب لأعمامك لطلب العون البيت سينهار فوق رؤوسنا نحتاج لنرممه.

وضعت أمي على مائدة الإفطار جبن وبيض وثلاث أرغفة وطبق (عاشوراء) وجلست بجواري تمتم بضع كلمات وأنا أحاول أن أبحث بالذاكرة عن صور للعائلة وذكريات بعيدة.

ثم همست لأمي لتنزع الفكرة التي لا أتوقع أن تؤتي ثمارها:

- منذ وفاة والدي لم يطأ بيتنا أحد!

تطلعت أمي لي وأنا أرى نظرة أحفظها عن ظهر قلب فهي لن تتراجع عن قرارها وصدور فرمان الرحلة إلى الصعيد ثم تساءلت وقد كست ملامحها الحزن والوهن:

وماذا نفعل الآن؟ أنت بلا عمل والبيت سينهار اذهب لأهلك هناك وأطلب مساعدة أو نترك البيت ينهار فوق رؤوسنا.

بحثت عن الملعقة المختبئة خلف الطبق وغمغمت:

- يبدو شهيا الطبق السنوي المعتاد من أم مصطفى.

ثم هتفت وأنا استدرج بالكلمات لترسو فكرة رفض عائلتي للمساعدة ونزع الأمل التي تتمسك به:

- لن يمدوا يد العون لنا.

ذهبت كلماتي أدراج الرياح فأمي قد هبت بخطوات سريعة والبيت يهتز من وقع خطواتها وكأنه يحث الخطى معها لتختفي لثواني وتعود بحقيبة جلدية ثم هتفت وقد اكتفت من الحديث.

- هيا تناول إفطارك واذهب لمحطة القطار لقد أعددت حقيبة سفرك.

هبطت درج البيت يصاحبني صوت بائع الفول بصوته الجهوري المعتاد. ليوقظ أهل الشارع والأطفال يلهثون خلف العربة التي تحمل قدرتين ممتلئتان عن آخرهم بالفول المدمس لا تمضي ساعتين إلا تكون قد نضبت بالكامل والمحال تفتح وصرير الأبواب الصاج تعلن بداية اليوم. وبعض من الماء أمام الورش وانطلاق المذياع بأغنية (يا صبا ح الخير) وتبادل بضع كلمات من النوافذ. بين أمي وبعض الجارات بتمني جمال اليوم والأوقات قد أحدث ضجيج بالشارع. أعادني للخلف انجذاب القميص لألمح جاري مصطفى يهتف بمرح وهو ينظر للشنطة الخاصة بي:

- إلى أين؟

أجبت وأنا أشير للبيت.

- لأعمامي بزيارة قصيرة قد أعود مساءً. فالنتائج شبه مؤكدة .

أشار مصطفى لبقايا الجير الذي نخطط به ليلا الشارع كتصميم الملعب وتمحوه آثار الأقدام صباحا قبل أن يهتف بصوت عالٍ:

- عد سريعا ففريق كرة القدم لا يكتمل دونك، سنجهز الملعب وننتظرك.

(ساقع إيشاربات يا بنات. لب وتسالى . حلويات)

أصوات الباعة الجائلين التي تصدح داخل عربات القطار وأصواتهم المرتفعة وهم يتصايحون ويلقون تحية الصباح متبادلة بينهم. لا يكفون عن الذهاب والمجيء جعل من الصعب أن أكمل النوم هدهدة القطار

وانطلاقة وأنا أتأمل المسافرين ما بين اثنان يتبادلان أحاديث جانبية أو عائلة كاملة أو مسافر شارد بأفكاره مبتعد عن الجمع و"الكمسري" ببذلته الرمادية يجاهد بينهم ليقتنص المار دون تذكرة أو مختبئ بين المسافرين الشرعيين أسندت رأسي على شباك القطار فاحتك بوجهي حد حاد نظرت بجواري لرفيق أراد قتل الوقت بجريدة يومية لملم الجريدة بعيد عن وجهي وهو يبتسم لي معتذرا.

فهمست وأنا ابتسم له:

- لا عليك فالطريق طويل يحتاج لاستكشاف الأخبار اليومية.

واستسلمت لبضع دقائق من النوم قبل أن يرتطم بقدمي شيء ما وصوت مزعج يصاحبه وقد أخذ وضع مهاجم لي بالتكرار الركل والصوت يلح في إيقاظي بشتى الطرق حاولت تجاهله ولكن أتى مصاحب له صوت امرأة تصاحبه تتضرع للرب أن يكتب له الشفاء نظرت إلى هذا الصغير ذو الخمس سنوات وبكاءه المتواصل ولم أدرى أين نزل رفيقي؟ أم هو من سمح للمرأة بالجلوس؟ واختار أن يقف بعيدا!

ما الذى يبكيك هكذا؟ هل تخاف القطار؟

همست للصغير وحملته من بين يديها أجلسته بهدوء على قدمي فنظر لي ثم أمسك الصليب المتدلي من عنقي والذي أصرت والدتي على تعليقه برقبتي قبل أن أسافر.

سكن الطفل تماما ونظر لي ثانيةً فقرأت بعض من مزامير داود تطلعت نحوي المرأة بدهشة وبمرارة وحسرة غمغمت:

- صار لنا شهور ونحن عند الأطباء عاجزين عن شفائه ولا يتوقف بكاءه

أنت فتى جيد محبوب للرب أكيد.

ابتسمت لها ورق حالي للطفل فهمست بأذنه بوشوشة فابتسم وأجلسته بين ذراعي أهدهده قليلا فنام تبادلت المرأة نظرة بيني وبين طفلها الذي سكن للنوم ثم هتفت بفرح:

- شكرا لك ابني الرب يباركك.

تطلعت للصغير النائم بين ذراعي ثم سألتها:

- ما اسم طفلك؟

همست المرأة وهي تنظر للطفل بإشفاق:

- مينا.
- يا للاسم الجميل سيصير ملك أكيد أو صاحب منصب كبير.

تطلعت نحوي باندهاش ولم تفهم مزحتي معها فصمت ونظرت من النافذة والأراضي الزراعية أمامي تطوى بسرعة والطفل نائم ساكن بين ذراعي إلى أن توقف القطار بصرير متقطع ولافتة حجرية بيضاء كتب عليها بخط عريض (سوهاج) فاعتدل الكثير للهبوط من العربات ومدت المرأة ذراعيها لتحتضن طفلها النائم تضمه لها بحنان.

شاكرة إياي وصرت أعاون الناس في تنزيل حوائجهم من أعلى الرفوف وهبطت وأنا أبحث بنظري عن سيارات الأجرة التي ستقلني لبلدتي وبلدة أعمامي انتهى لمسامعي صوت اسم القرية.

(كفر المسيح)

كان السائقين ينبهون المسافرين للسيارات الذاهبة لها سارت خطواتي لمصدر الصوت الدال إلى جهتي المنشودة.

وحين هممت بالركوب رأيت المرأة أم الطفل تقف مع مجموعة كن بانتظارها وتشير لي وتتحدث لهم مما دفعهم لتوجيه أنظارهم لي فلوحت لهم قبل أن تنطلق سيارة الأجرة إلى بلدتي.

توقف سيارة الأجرة بعد عشر دقائق من السير فهبطت لتطالعني الكنيسة الوحيدة بالبلدة والدير ملتصق بها وبيت العائلة بجوارهم فجدي الأكبر بشارة هو من بنى الكنيسة وأنشأ الدير سرت بخطوات يملئها ذكرى بعض من أيام طفولتي بالبلدة الصغيرة توقفت أمام المنزل الكبير المكون من ثلاث طوابق تحيط به حديقة واسعة كبيرة تضم أشجار المانجو والجوافة والزيتون وزهور الياسمين اجتزت الحديقة لأقف أمام الباب أستمع إلى صوت عمتي ماريا وهى تردد من خلف الباب بصوت عذب جميل:

يا رب اجعل منا عائلة يحتاج كل واحد منا الأخر.. نحب ونسامح بعضا..

يـا رب اجعل منـا عائلـة يحتـاج كل واحد منـا الآخـر.. نحـب ونسـامح بعضنا..

معا نعبدك ونمجدك، معا نشارك كلمتك..

صوتها أعطاني الأمان عمتي ماريا قلب العائلة التي يشع محبة للجميع

طرقت الباب بدقات بسيطة ليأتيني صوتها الهادئ:

من بالباب؟

أجبت وقد اجتاحتني فرحة كبيرة وشوق لعمتي:

- عمتي أنا چورچ..

صوتها بادلني الفرح وهي تهتف:

- چورچ!!

سمعت هرولتها وهي تسعى للباب ورأيت وجهها المبتسم ثم جذبتني إلي داخل البيت. الذي لا يمتلأ إلا بالأثاث الضروري. كما هو منذ طفولتي. الأثـاث قـديم ومرتـب بدقـة الردهـة الطويلـة بهـا مائـدة مسـتديرة للغـذاء والسـاعة ذات البنـدول كمـا هـي بجـوار صـورة العـذراء. والغـرف كـل واحدة تحتوي على سرير ومكتب صغير ودولاب وستائر قديمة الطراز لكنها دائما نظيفة وسجاجيد ذات قيمة كل شـيء كمـا شـاهدته حين كنت طفل لم يستبدل شيء هتفت عمتي وعيناها تدمع من الفرح وهـي تنـادي لعمي:

- إيليا ألم أخبرك أن چورچ سيأتي قريبا؟ لقد رأيته بالحلم وشاهدت إياه يوصينى به، إيليا!

خطواته الهادئة لا تزال كما هي ووجه المستطيل ببياض الجينات العائلي المتوارث وعيناه العسليتان القاتمة. وأنف صغير وشعر قد غزا الشيب أركانه عمي إيليا العقل التجاري للعائلة والمتحكم بكل أموالها، رغم كبره إلا أن عقله مثل الآلة الحاسبة يجيد جمع الأموال والحسابات الذهنية الصعبة وضع يده بيدي ثم غمغم:

- مرحبا جورج كيف حالك؟

أجبت بهدوء:

بخير

ثم أومأ برأسه إلى ماريا وقال:

دائما أحلامك حقيقة يا ماريا.

تشبثت عمتي بذراعي ثم قالت:

سأعد لك طعاما لقد كان سفرك بعيد ولا بد أنك جائع. وكأني أرى (يوحنا) بشعره الأسود المجعد ووجه الأبيض النحيف وعيناه السوداء وأنف الرومان وطولك الفارع أنت نسخة من أبيك يا چورچ.

عمتي هناك أمر يجب أن تعرفوه.

حاولت أن أشرح لها حال البيت الذي يكاد يسقط فوق رؤوسنا ولكنها هزت رأسها بحنان:

- الطعام أولا.

استدار عمي إيليا بلا مبالاة ودلف لحجرة مكتبه فنظرت لعمتي وقد تسرب بعض من الخيبة لنفسي فهمست لعمتي ماريا باستجداء:

- الأمر خطير عمتي.

وضعت يديها على ذراعي بحنان ثم همست:

بعد الطعام ستخبرني بكل شيء هيا أنت ستمكث معي أيام لن أتنازل عن هذا مضت سنين بعيدة لم أراك فيها.

رائحة بخور الحصى البان قد امتزجت بتوابل عمتي ماريا أجلستني بود وهي تضع يديها على كتفي ثم نادت بصوت عالٍ:

- إيليا. إيليا الغذاء جاهز.

فتح باب مكتبه ببطء شديد وتطلع لنا من خلف نظارته السميكة وجلس أمامي ينقل نظرته بين الطعام الممتد أمامنا والتي حرصت العمة على طهي لحم ودجاج وأرز بالكاري وبسلة وبطاطس ولم تخلو المائدة من المقبلات والسلطات جعل إيليا يغمغم:

- ماريا أعدت وليمة من أجل چورچ.

ابتسمت العمة ماريا لي ثم سألت باهتمام وهي تضع أمامي ثلاث قطع من اللحم.

- ما الأمر حبيبي؟

أجبت بضيق:

- البيت إنه يسقط فوق رؤوسنا ونحن بعسر مالي ولا نستطيع أن نتدبر الأمر.

ربتت العمة على يدي بلطف ثم تابعت:

- لا بأس حبيبي كل شيء سيصير على ما يرام.

ثم استدارت لعمي وقالت:

- أعطيه من أموالي ما يشاء.

وضع إيليا الملعقة جانبا ثم ردد باستنكار:

- أموالك كل أموالنا بالتجارة وهل نسيت أن الحاج سلامة الله يرحمه ربما يرغب أولاده باسترداد أموال والدهم وستتأثر التجارة وأنت تعلمين هذا جيدا هل أوقف التجارة وأنتظر لآخر العام؟

ثم نقل بصره لي هاتفا بسخط:

وأنت، أنت لماذا لا تعمل؟؟؟؟

كانت عيني عمي إيليا تقدحان غضبا وهو مستعد ليصب غضبه علي فارتفع صوت عمتي يتحدى عمي:

- إيليا الفتى متخرج منذ شهر فقط.

نقل بصره نحونا ثم قام بعصبية مفرطة وهو يغمغم:

- سأذهب لأولاد الحاج سلامة لاطلعهم على أمور التجارة.

وتوجه صوب الباب للخارج ليعلموا أن الأمر قد انتهى ورسالته واضحة قاطعة وهي الرفض.

- لا بأس يا چورچ.

صوت عمتي الحنون جعلني أطرق شاخص بصري بالأرض هذا ما توقعته تماما فهمست لها وقد ملأتني الخيبة.

- عمتي يجب أن أعود.

هزت عمتي رأسها نفيا ثم تابعت:

- لا انتظر فقط يومان.

أخذت نفس عميق قبل أن أهتف وغصة تخنق حلقي:

- وما فائدة اليومان؟ لقد حدد عمي موقفه وانتهى الأمر.

وضعت عمتي يديها فوق يدي ثم قالت برجاء:

- لا سنحاول ثانية. والآن هل تجئ معي لنوقد شمع العذراء ألم تشتاق لكنيسة جدك والدير.

ثم سارت بضع خطوات وعادت بشنطة يدها ودفعتني أمامها وهي تهتف:

- هيا يا چورچ.

هل تعرفني يا جورج؟

أنا عمك غابرييل كنت صغيرا جدا حين رحلت من هنا مع والدك يوحنا قدس الله روحه أنا وأباك أبناء معمودية واحدة.

نظرت عمتي العجوز وتابعت:

- هذا عمك غابرييل صديق جدك.

نظر غابرييل لي مليا ثم رفع حاجبه استنكار:

- لا تتذكرني لا بأس ولكنني أذكرك جيدا أتذكر يوم التجلي؟!

هززت رأسي نفيا ثم غمغمت:

- لا صدقا لا أذكر شيء!

نظرت لعمتي ثم للكنيسة التي يفصلنا عنها بضع خطوات ويعيقنا عنها العم غابرييل الذي هتف وكأنه يبوح بسر كبير لعمتي:

- ماريا ابن أخاك چورچ شاهد العذراء يوم التجلي لقد اخبرني بشارة بهذا منذ زمن هذا الشاب مبروك.

تمتمت عمتي وهي تنظر لي بقلق:

- باسم الصليب.

ثم جذبتني من ذراعي وهي تهتف لي:

- هيا لنوقد الشمع.

تعثرت بشيء جعلني أتعثر بخطوتي ثم رفعت رأسي للجسد الصغير الذي يعوق حركتي فهتف بصوت مألوف لدي:

- أنت.. أنت...

ابتسمت للطفل الصغير الذي يرافق أمه ثم حملته:

- أهلا يا مينا.

هل تعرف تحية وابنها مينا؟!

تساءلت عمتي ماريا بدهشة.

أجبت وأنا ابتسم للطفل:

- تعارفنا بالقطار.

ولكن تحية أجابت وهي تلقى لنا نظرة ود:

- أن هذا الفتى مثل القس مارجرجس تعبت من البحث عند الأطباء ولا دواء لابني لمسة الشاب لابني بها شفاء.

بدا الضيق يظهر جليا على وجه عمتي ماريا ثم غمغمت:

چورچ يجب أن نسرع الخطى للكنيسة فالعمة ماتيلدا تنتظر هناك وإذا توقفت معها لم أصل لهناك أبدا.

توسلت عمتي لي ولكنني سألت بفضول ودهشة:

- عمتي وفقا لمعلوماتي لا عمة لي إلا أنت من تكون عمتي ماتيلدا؟

هزت عمتي ماريا رأسها بالإيجاب:

- إنها عمة الجميع هنا، أنها أكبر مقدسة بالبلدة وعمك إيليا يحبها ويستمع لها ويعتبرها رأس الحكمة فهي من جذور عائلتنا.

ثم أطرقت تفكر بشيء ما وتابعت:

- أظن أنها من جذور عائلتنا هي تنتمي لكل العائلات هنا رجاء أسرع الخطى.
- ماريا.

صوت العمة ماتيلدا القوي كبوق سيارة قد استمع له جميع من بالبلدة، أغمضت العمة ماريا عينيها بأسى ثم هتفت:

- يا إلهي لقد وقعنا بالفخ.

ثم فتحت عينيها لتنظر لماتيلدا

- أهلا عمتي ماتيلدا!

نظرت لنا العمة وسؤال يكاد ينطق من الوجه جعل العمة ماريا تجيب لتهدأ ماتيلدا وهي تشير لي:

- هذا چورچ ابن أخي يوحنا.

هزت ماتيلدا رأسها موافقة وكأنها كانت تعلم الإجابة مسبقا:

- نعم يشبه أباه كثيرا.

صوت تحية مارة بجوارنا صدح عاليا قبل أن تهتف العمة ماتيلدا:

- لا لا إنه شديد الشبه بالقديس مارجرجس.
- هلا ندخل لنوقد الشمع.

صوت عمتي المتوسل وهي تسارع الخطى لتتوقف أمام البوابة الإلكترونية والذي يجلس خلفها شابان تبدو أعمارهم متقاربة وهيئتهم متقاربة بملابس "البيچ" الممزوجة مع اللون الزيتي و"الكاسكيت" الزيتي اللون والأحذية الجلدية التي قد ارتفعت لأعلى توسطت المسافة بين القدم والمفصل (البيادة). وقد وضع كل واحد منهم البندقية بمحاذاة قدمه عبثت عمتي بمحتويات حقيبة اليد لتستخرج بعض فطائر محلاه وضعتهم بعناية داخل أكياس بيضاء ناولتهم لهم وابتسمت وهي تلقي التحية عليهم ثم استدارت لي وهتفت:

- هذا ياسين وطه. أنهم يؤدون الخدمة العسكرية. هنا بحراسة الكنيسة. تعرف يا چورچ كنت أتطلع لهم وأتذكرك فهم يذكروني بك. هم مغتربون عن أهلهم وأنت كنت بعيد عنا.

طراز الكنيسة بيزنطي يتسع لخمسمئة شخص تقام فيها الشعائر الدينية المختلفة يتوسط القاعة وعلى الجانبين منبران من الحجر لكل منهم سلما ملتويا تستخدم لقراءة الإنجيل وعلى الجانبين (البيما) مكان وقوف الكورال الذي يردد الصلوات والتراتيل الدينية خلف الكاهن بالاحتفالات الدينية واجهة الكنيسة توجد المنصة الحمراء والتي يقف عليها الكهنة لتأدية الصلوات وخلف الواجهة المنصة الحمراء.

يوجد المذبح والغرف المخصصة للطقوس الدينية وعلى اليمين واليسار مقاعد حمراء أماكن مخصصة للضيوف

أما جدران الكنيسة فتملؤها اللوحات الفنية للعذراء وللكنيسة فناء أمامي يعلوه البرج الجرسي للكنيسة.

- صلاتي اليوم يا أمي الحنون مريم إن نمت على ضيق فأيقظيني على فرج وأن نمت على حزن فأيقظيني على فرج.

اتجهت بخطوات تملأها الهموم إلى ركن بالكنيسة أتطلع من النافذة التي تطل على الشارع الخلفي وأنا أفكر بأمي والبيت المتصدع حين لمع ضوء بعينيي وسمعت صك وضحكة مينا وهو يسلط جزء مبتور من الزجاج ويلهو مسلط الضوء لعيني فينعكس الضوء على الصليب ووجهي فابتسمت لمينا بود.

وحين استدرت كانت العمة ماتيلدا تقف بأول الكنيسة وقد عقدت الدهشة لسانها تنظر لي وللضوء وتمتمت بصوت منخفض:

(المبشر)

هتفت ماتيلدا باستنكار:

- صرت عجوز إيليا تملكك الوهن والمرض وضعف الذاكرة.

هتفت عمتي ماريا:

- چورچ تعال وبارك ماتيلدا.

نظرت لي عمتي فأسرعت الخطى ووضعت يدي على رأس العمة ثم تمتمت بمزامير دواد وإيليا يتطلع بصمت:

أطلقت ماتيلدا زفرة ارتياح وچورچ ينهي تراتيله ثم قالت:

- لقد ذهب عني الألم.

ثم مالت على أذن العم إيليا وهي تشير لي:

- ابن أخاك مبشر!

وما كادت تنهى جملتها حتى دق الباب ثانية واندفع مينا يجري بالبيت وخلفه غابرييل وحفيدته لوكا التي تبكي وتحية تتحدث لچورج وتشير الصغيرة لوكا

- إنها مريضة مثل ابني.

تطلعت نحوهم دون أن أفهم شيء فهتفت عمتي ماريا:

- هيا جورج قم بمباركة لوكا.

ثم نظرت للعم إلياوتابعت:

- وعمك أيضا إنه مريض.

وافقتها تحية:

- نعم إلياييبدو مريض.

هتفت ماتيلدا بفزع:

- إلياس يبدو مريض.

هتف غابرييل باستنكار:

إلياس معك كنز بالبيت دعه يقوم بمباركتك.

ولكن عمتي ماريا هتفت بي:

- لقد جهزت غرفتك بالطابق العلوي الأولى على اليمين اذهب لتستريح.

أسرعت الخطى لأعلى بهدوء تاركا الجميع.

همست ماريا لماتيلدا وهي تحاول إشغال فكرها:

- أتذكرين يا عمتي ماتيلدا حين كنت صغيرة وأخبرتين أننا عائلة مباركة وأن عمي داود الأكبر كان يملك أكسير الحياة؟

هزت ماتيلدا رأسها موافقة:

عمك داود كان عطار كان يصنع أدوية تشفي جميع الأمراض كان قديس ونافع للجميع يملك كرامة مثل چورچ.

تمتمت ماريا:

- أظن أن چورج يعلم ما هو أكسير الحياة لقد كان أخي يوحنا ملازم لعمي داود ويعرف كل شيء وقد أوعز سره لچورچ هذا مؤكد.

أرهف الجميع السمع لماريا ثم تمتمت ماتيلدا:

- إن چورج أيضا مبشر وله كرامة.

تابع غابرييل بثقة:

هذا واضح منذ الصغر.

هتفت ماتيلدا وهي تمسك بذراع ماريا:

دع چورچ يعطي الأكسير لإيليا أنه شاحب هيا ليصح بدنه ويعيده شاب.

ثم نظرت لإيليا بأسى وتابعت:

لقد هرمت يا إلياس وعيناك غربت عنهم شمس الحياة.

هزت ماريا رأسها.

إن أخي يشقى ويكد كثيرا بحكم تجارته أنه الوحيد بالعائلة أخي يشقى كثيرا بحكم تجارته.

وافقت العمة ماتيلدا ثم تابعت:

- نعم هو كذلك انه الوحيد بالعائلة الذى يمتلك حرفة التجارة بكل شيء،

وصنع تجارته من ميراثه الصغير وضم أموالك له عكس يوحنا قدس الرب روحه الذي أخذ ميراثه وذهب للقاهرة واكتفى بوظيفته.

ثم مالت على أذن إيلياثم همست:

لا تترك چورچ يبعد عنك وخذ منه أكسير الحياة.

وابتسمت ماريا وهى تلمس نجاح خطتها بمساعدة عمتها:

- اخلد للنوم الأن يا إيليا.

أنت متعب وفي الصباح سأجد حيلة لأقنع چورچ وآخذ الأكسير

أكدت ماريا الكلام لماتيلدا بثقة ومن ثم تابعت:

أخي مريض ويحتاجه.

سأذهب الآن يا ماريا وسآتي صباحا لنقنع جورج.

انصرفت ماتيلدا وألقت ماريا التحية على أخيها قبل أن تصعد للطابق العلوي لتلقى نظرة على جورج الذى غط في نوم عميق وذهبت غرفتها.

أشرقت الشمس اليوم التالي لتوقظ ماريا چورج ويهبطان للدور السفلى لإعداد الفطار وهي تنادى بصوت عال:

إيليا إيليا

- أنا مريض يا ما ريا.

جاء صوت إيليا مرتعش ضعيف فولجت ماريا للغرفة لتجده متدثر بالأرشفة وزاد شحوب الوجه ونادت بلهفة:

چورچ تعال وبارك عمك واتل الإنجيل هنا.

استجبت لنداء عمتي وقد رق قلبي لعمي وماريا تنظر له وبدأت بالترتيل وحين انتهيت هتفت عمتي برجاء وتوسل:

- چورچ إن عمك قد وهن والتجارة تحتاج إلى صحة هل تعطيه أكسير الحياة

نظرت لعمتي بدهشة وتساءلت:

- أكسير؟ ماذا؟

تابعت عمتي بثقة:

- لا تنكر أنا أعلم.

إيليا عمك هل تبخل عليه؟

استنكرت بعدم فهم:

- عمتي!

تابعت عمتي بحماس:

أنا مستعدة لشرائه سآخذه بمالي.

صوت العم إيليا جاء بوهن وهو ينظر لي:

لا سآخذه أنا وأدفع ما تريد.

نظرت عمتي لي ثم تابعت:

- فلنتفق فلتعطيه لعمك. إيليا سنبادله معك ما رأيك؟ نأخذه ونعطيك ما يلزم للبيت؟!

حاولت أن أشرح لعمتي أن بالأساس لا أفهم ما هو أكسير الحياة ولكن صوت عمي جاء بدون مقدمات:

- اتفقنا.

وضعت عمتي يديها على ذراعي وهي تزج بي للخارج ثم قالت لتطمئن العم إيليا:

هيا لنحضره أنا وأنت!

حين أمسكت بي ونحن نعتلى الدرج الطابق العلوي، همست لها:

- أي أكسير؟ عمتي ...

وضعت عمتي ماريا يدها على فمي ثم قالت:

شش هناك بغرفتي ستجد زجاجة بها ماء ورد وعسل نحل أبيض وأعشاب أخرى أحضرهم وأعطهم لعمك وأخبره أنه أكسير الحياة هيا لتعود للقاهرة هيا بعد نصف ساعة سيعج البيت بكفر المسيح كله.

- ها هو الأكسير يا عمي.

وضعت الزجاجة بيد عمي.

التقطت عمتي ماريا الزجاجة وصبت منه بكوب وأعطته لإيليا الذي تناوله كله ثم أشار لماريا بخزانة حديدية مجوفة بالجدار وأخرج مفاتيح من قميصه لأخته:

- أعطى ابن أخاك النقود يباركك الرب چورچ.
- ستكون بخير أخي.

هتفت ماريا وهي تقبل رأسه بصدق وحنان قبل أن تخرج بي للصالة صوت ماتيلدا من خلف الباب تهتف مع الطرقات:

- هل استيقظتم؟؟

تطلعت لي عمتي ثم قالت:

- يجب أن تذهب يا چورچ .

ساعتين وسيعج البيت بكفر المسيح كله سأذهب لأحضر حقيبتك وسأضع بها النقود.

حين صعدت عمتي الدرج ذهبت لأفتح الباب للعمة ماتيلدا.

- كيف هو إيليا؟

تساءلت العمة وهي تنظر لباب غرفة العم إيليا المغلق عليه

تناهى صوت العمة ماريا لنا وهي تحتضن الحقيبة الخاصة بي

- أخي بخير. وابن أخي أيضا بخير. لكن عليه العودة
- سأتى لزيارتكم بالقاهرة يا چورچ.

كان صوت العمة ماتيلدا.

حين تابعت ماريا:

- أكيد كلنا سنأتي لزيارتكم بالقاهرة وإيليا أيضا سيأتي.

حين هممت لمعانقة عمتي هيل من التراب الشديد تساقطت بشدة فوق رأسي يصاحبه طقطقة عالية وغبار كثيف ملأ الأرجاء ثم ارتج البيت بعنف واهتززت وأنا أرى الجميع حولي يهتزون وأنا أنظر لعمتي ماريا. تحاول النهوض بعد سقوطها أرضا. والعم إلياس قد ازداد تمسك بالفراش وهتف صارخا

- زلزال!

صوت العمة ماتيلدا وهي تحاول الخروج من البيت.

- أظن البيت يقع أنه قديم ووقع أقدام يتجه صوبنا ولكنه تجاوزنا لتندفع هرولة الجميع إلى اتجاه واحد وصراخ فاطمة.
- الكنيسة!!

جعلت الجميع يلتقط ويعي جيدا أن هناك أمر بالكنيسة. تدافع الصغير والكبير والنساء والأطفال وبكاء ونحيب كلما اقتربت من المكان ورعشة قد رجت مفاصلي فصار رعب داخلي وأنا اندفع بالجموع لأشاهد السنة من رماد وأجزاء متهدمة وبضع أشلاء من لحم تناثرت هنا وهناك امتزجت بضع دماء بقطعة حلوى ودماء بفطائر مع أقمشة زيتية ولون بني قد صار القاني مضاف لها وقطعة حلوى تدحرجت بعيد عن كف صغير. قد طرح أرضا ووجه السماء ينظر.

بكاء وعويل من كل جانب ومكبرات الصوت من المآذن. اسعفوا بدمائكم مصابي الكنيسة.

وصورة العذراء تبكي.

ياسين ومينا وطه